مكتبة البنين
قسم الدوريات

غير مصرح باعارتها من المكتبة

# حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

العدد الخامس

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

# المنهج التربوي لإعداد إخوان الصفا

الدكتور

حامد طاهر

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة

ليس أحب إلى قلب أى مفكر ، مهما كان مزاجه الشخصى ، أن يرى أفكاره بين الناس منتشرة ، وأن يسمع اسمه جاريا على الألسنة . هذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، وإنما الغريب حقا أن نلتقى فى القرن الرابع الهجرى بموسوعة فلسفية ضخمة ، تطرح للجماهير ، دون أن يعُلن فيها عن أسماء مؤلفيها او المشتركين فى جمع مادتها ، وتنسيق أبوابها وفروعها، كل ما تفعله أنها تكتفى بالاشارة العامة اليهم ، محاولة رسم صورة مثالية لهم ، وداعية فى الوقت نفسه الى سرعة الاقتداء بهم ، والتمسك بصحبتهم المحتوية على ( سعادة الدنيا والآخرة )[1] .

تلك هى جماعة إخوان الصفا[2] ، وهذه أول عقبة يصطدم بها الباحث فى فلسفتهم ، فإنه

---

(١) رسائل إخوان الصفا حـ٣/٢١ ، ٤/٩٩ ط القاهرة ١٩٢٨ ( فى أربعة أجزاء بتقديم د . طه حسين ، وأحمد زكى باشا ) وسوف نشير اليها فيما بعد بالرسائل اختصارا .

(٢) الاشارة الى هذا المصطلح وردت لاول مرة فى كتاب ( كليلة ودمنه ) الذى ترجمه ابن المقفع ، فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى ـ انظر : باب الحمامة المطوقة .

إذا كان أبو حيان التوحيدى ، المعاصر لهم ( ت ٤٠٠ هـ ) قد حدد أسماء طائفة منهم[٣] ، فإن الذى يبقى بعد ذلك هو سكوت التاريخ عن نشاط تلك الطائفة : كيف عاشت حياتها الخاصة ؟ ومن هو زعيمها ؟ وما هى اتصالات أعضائها ؟ وأى اتجاه فكرى أو عقائدى كان يجمعهم ؟ إلى جانب أسئلة أخرى يبقى بعدها جميعا سؤال كبير هو : هل هذه الطائفة من الاسماء التى ذكرها التوحيدى هى وحدها التى كونت جماعة إخوان الصفا ، أم أن هناك عددا آخر من الاسماء لم يذكره أبو حيان ، وبالتالى لا نعرف عنه شيئا[٤] ، ثم ما السبب فى ألا نسمع عنهم غير إشارة أبى حيان ، مع أن موسوعتهم الضخمة تؤكد أنها لابد أحدثت ، فى القرن الرابع الهجرى ، أثرا فكريا ، يعتقد أنه آثار الرأى العام حينئذ ، إنْ بالقبول وان بالرفض .

مهما يكن من شىء ، فإن المنهج الذى رسمته هذه الدعوة ، المجهولة المؤلفين ، لتخريج الرجال أو القادة ، كفيل بأن يلقى لنا استعراض خطواته كثيرا من الضوء على الشخصية المنشودة ، لهذه الدعوة ، وذلك فضلا عن أنه ربما قدم شيئا ذا قيمة فى ميدان آخر ، وهو الميدان الذى مازالت تجرى فيه حتى اليوم محاولات البحث للتعرف على الشخصيات الحقيقية لاعضاء تلك الجماعة [٥]. أخيرا ، فمهما قصر هذا البحث فى الوصول الى غايتيه السابقتين فإنه سوف يحتفظ بعرض متواضع لجانب هام من جوانب فلسفة إخوان الصفا وهى الفلسفة التى مازالت ، على الرغم مما بذل فيها من جهود حتى الآن، موضوعا للدرس والتحليل .

## طبيعة الجماعة :

يقدم إخوان الصفا أنفسهم إلى الجماهير فى نص قوى ، أشبه ما يكون بتلك البيانات التى

---

(٣) الامتاع والمؤانسة ٢/ ٤ ، الليلة ١٧ ، والاسماء كما يلى : زيد بن رفاعة ، ( خادمه أبو سليمان بن معشر البستى ، المعروف بالمقدسى ، أبو الحسن على بن هارون الزنجانى، أبو أحمد المهرجانى ـ العوفى .

(٤) تشير الرسائل الى ان القادة كانوا من كل الطبقات ، كما كانوا منتشرين فى كل مكان ٢/ ٢١٤ .

(٥) انظر ( اخوان الصفا ) للدكتور محمد غلاب ، حيث يعترف فى فصل ( كيف تكونت الجماعة ) بصعوبة المشكلة ص ١٧ ـ ١٦ ، العدد ١٩٠ ، المكتبة الثقافية بالقاهرة ١٩٦٨ .

تصدر من إذاعات العالم فى عصرنا الحاضر ، معلنة عن قيام ثورة أو مؤذنة بحدوث تغيير ، يقولون : ( نحن جماعة إخوان الصفا . . أصفياء وأصدقاء كرام . . كنا نياما فى كهف أبينا آدم مدة من الزمان ، تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان ، حتى جاء وقت الميعاد ، بعد تفرق فى البلاد ، فى مملكة صاحب الناموس الأكبر ، وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة فى الهواء )[٦] .

تلك هى إشارة البدء ، وهى تقفنا من أول وهلة على ان هناك هدفاً أكبر وأعمق من تأليف كتاب ، أو موسوعة علمية ، يقصد بها مجرد تثقيف الناس وتشير إلى أن وراءها جماعة منظمة تعمل لغرض محدد ، تلمح اليه ، ولا تصرح به ، لكنها على أية حال : جماعة متميزة ، لها خصائص يمكن تتبعها فى أناة وصبر ( فمن علامات أولياء الله ، المبعوثين من موت الجهالة ، المنبهين من رقدة الغفلة ، المستبصرين بعين اليقين ، ونور الهدى ، العارفين بحقائق الأشياء وتغاير الأمور ، وتصاريف الأحوال ، فقد صارت الأيام كلها عندهم عيدا واحدا ، وجمعة واحدة ، وصارت الأماكن كلها لهم مسجدا واحدا ، والجهات كلها قبلة ومحرابا ( أينما تولوا فثم وجه الله ) وصارت حركاتهم كلها عبادة لله ، وسكوناتهم طاعة له ، استوى عندهم مدح المادحين، وذم الذامين ، لا يأخذهم فى الله لومة لائم ، قياما لله بالقسط شهداء لله بالحق ، وهم على صلواتهم دائمون[٧] ، فقلوبهم فى راحة من التعلق بالاسباب ، وأبدانهم فارغة عن تكلف ما لا يعنى به ، ونفوسهم ساكنة عن الوسواس ، وهم فى راحة من أنفسهم ، والناس منهم فى راحة وأمان ، لا يريدون لاحد سوءا ، ولا يضمون شرا لاحد من الخلق ، عدوا كان أو صديقا ، مخالفا كان او موافقا[٨] .

ولاشك فى أن هذا النص يتضمن دعوة واضحة إلى نوع من ( الدين العالمى ) الذى تنمحى

---

(٦) الرسائل ٤/ ٨٥ .

(٧) يورد أبو حيان نقاشا احتدم بين الحريرى والمقدسى ، والاخير من اخوان الصفا ، حتى وصل الامر بالحريرى ان يصيح فى المقدسى قائلا : ( فما بالنا لا نرى واحدا منكم يقوم بأركان الدين ، ويتقيد بالكتاب والسنة ، يراعى معالم الفريضة ، ووظائف النافلة ) الامتاع والمؤانسة ٢/ ١٤ .

(٨)الرسائل ٣/ ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

فيه الحدود بين الأديان المنزلة ، ولا ينبغى أن ينخدع القارىء بتطعيم النص ببعض آيات القرآن الكريم ، التى وردت بالتأكيد فى غير سياقها . كما لا ينبغي أن يوحى إليه هذا الموقف المتسامح من الجماعة مع العدو والصديق أنه أمام جماعة صوفية ، قد قطعت أسبابها بالدنيا ، وأخلت صدورها من التعلق بها ، واستوى عندها - على حد التعبير - مدح المادحين، وذم الذامين . . لأننا ما نلبث أن نجد هذه الصوفية أو الشفافية قد اختفت أمام الدعوة إلى ( تنظيم عقلى )، ينصب من العقل رئيسا على الجماعة ، ويلزمها قضاياه وشرائطه ( . . . ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحكم بيننا : العقل الذى جعله الله رئيسا على الفضلاء من خلقه ، الذين هم تحت الأمر والنهى ، ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التى ذكرناها فى رسائلنا ، وأوصينا بها اخواننا )[٩] .

وإذا كان العقل هو رئيس الجماعة ، فقد كان من الممكن الاكتفاء بأن تلتقى هذه الجماعة على أسسه وقوانينه ، ولكن الأمر يتجاوز بالتأكيد هذا اللقاء الفكرى ، فيدعو الشخص إلى الانخراط الكامل فى جماعة لها سلوكها الخاص ، ومبادئها المعيّنة : ( هلم إلى مجلس إخوان لك نصحاء ، وأصدقاء لك كرماء فضلاء أخيار علماء ، محبين لك متوددين اليك ، فيعرفوك ما لا تنكره ، ويعلموك ما تتيقنه ، ولا تشك فيه بشواهد من نفسك وبراهين من ذاتك ودلائل من جوهرك . . إذا انتبهت نفسك من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ونظرت بعين البصيرة كما نظروا ، وسرت بسيرتهم العادلة كما ساروا ، وعملت بسنتهم الحسنة ، وتفقهت فى شريعتهم العقلية ، ودخلت مدينتهم الروحانية ، وتخلقت بأخلاقهم الملكية ، وعرفت آراءهم الصحيحة ، وتعلمت معلوماتهم الحقيقية )[١٠] .

**مرحلة الاختيار :**

الظاهر إذن اننا امام جماعة فكرية تدعو الناس جميعا إلى الالتحاق بها ، والسير على

---

(٩) الرسائل ٤/١٨١ .

(١٠) الرسائل ٣/٢١ .

طريقها ، وهى فى سبيل ذلك تتبع منهجا محكما لاختيار أعضائها فتبدأ باختيار الشباب ، السالمى الصدور ، والمتهيئين لقبول الدعوة بدلا من الشيوخ الذين تأصلت فيهم الآراء القديمة والعادات ، بحيث يصبح من العسير تغيير معتقداتهم ، أو حتى تعديلها : ( لا تشغل بالك بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا فى الصغر آراء فاسدة ، وعادات ردئية ، وأخلاقاً وحشة ، فإنهم يتبعونك ثم لا ينصلحون ، وان صلحوا قليلا قليلا فلا يفلحون ، ولكن عليك بالشباب السالمى الصدور ، الراغبين فى الآداب ، المبتدئين فى النظر فى العلوم ، المريدين طريق الحق والدار الآخرة ، المؤمنين بيوم الحساب ، المستعجلين شرائع الانبياء ، عليهم السلام ، الباحثين عن أسرار كتبهم ، التاركين الهوى والجدل ، غير متعصبين على المذاهب)[١١] .

هذه هى التربة الصالحة التى تتمكن الدعوة من أن تضرب فيها بالجذور : الشباب الخالص المتفتح الذى يشدو على طريق الأدب والعلم ، والذى لم ينضم بعد إلى واحد من الأحزاب السياسية ، أو الدينية التى كانت ظروف القرن الرابع الهجرى تسمح لها حينئذ بالنمو والانتشار[١٢] .

إن فى اختيار الشباب ، بالإضافة إلى أنه أخصب تربة لنمو الدعوة ، حماية لها وعونا ، وهذه الحماية قد لا تكون فى بداية الأمر حماية مسلحة ، ولكن الملاحظ أنها على أقل تقدير طاقة مختزنة يمكنها فيما بعد ان تدافع عنها بالجسد والروح . هذا اذا أضفنا انهم كانوا يفضلون نوعا خاصا من الشباب ، وهو ذلك النوع الذى يتميز بالعاطفة المرهفة تجاه الناس والأشياء : ( ومن الناس من يرى ويعتقد فى دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم ، ويرثى للمذنبين ، ويستغفر لهم ، ويتحنن على كل ذى روح من الحيوان . ويريد الصلاح للكل ، وهذا مذهب

---

(١١) الرسائل ٤/١٤٤ .

(١٢) كان للاسلام فى ذلك الوقت ثلاثة خلفاء متعاصرين : واحد فى العراق ، والثانى فى شمال افريقية والاخير فى أسبانيا ، ودارت الامارات الصغيرة فى فلك هؤلاء مستوحية فى ولائها مصلحة الاسر الحاكمة ، ولا يمكن فى هذا المناخ الا ان نتصور نشاط الاحزاب مشجعة من خصوم كل دولة ، بل وكل امارة - انظر : اخوان الصفا - للدكتور جبور عبد النور ص ٦٠٥ .

الابرار والزهاد والصالحين من المؤمنين ، وهكذا مذهب اخواننا الكرام )[١٣] .

إننا نتصور هذا الشاب الذى اجتمعت فى صدره فتوة الشباب إلى جانب فورة العاطفة قد انخرط فى الدعوة عن اقتناع فصار أعظم ما يكون إيمانا بها ، وأشدّ ما يكون إخلاصا لها ، وفداء فى سبيلها ، وهو نفس الشاب الذى ينشده إخوان الصفا ، ويرسمون لتنشئة منهجا محكما سوف نتتبع خطواته فيما يلى :

**مرحلة الاعداد :**

تتلو مرحلة الاختيار مرحلة أخرى طويلة ذات خطوات متتالية لإعداد الشاب اعدادا روحيا وعقليا وأخلاقيا حتى يصبح - على حد التعبير - انسان خير فاضلا أو أخا صفاء حقيقيا .

ونستطيع أن نقسم مرحلة الإعداد قسمين كبيرين ، يتضمن أحدهما منهجا للتطهير الجسدى والنفسى من عادات وطبائع معينة . ويشتمل الآخر على منهج لتكوين علمى وعقائدى وأخلاقى ، الغرض منه ، فى النهاية ، تخريج إخوان الصفا إلى الحياة ممارسين حقهم الموضح فى قيادة الناس جميعا نحو السعادة الكاملة[١٤] .

أول ما يتخلص منه أخو الصفا هو شهوات الدنيا ، وغرائز البدن التى تعتبر فى نظر إخوان الصفا ، حائلاً بين الإنسان والمعرفة ، فهم يقررون أن أسرار الدين وبواطن الامور الخفية ، وأسرارها المكنونة لا يمسها الا المطهرون من أدناس الشهوات وأرجاس الكبر والرياء[١٥] .

وإذا كان الامتناع عن الشهوات هو أول خطوة فى مرحلة التطهير، فإن ترك الفضول أو الاكتفاء بما هو ضرورى للبدن خطوة تالية تتقدم بالإنسان فى طريق المعرفة ( واعلم إن كنت

---

(١٣) الرسائل ٤/١٠٨ .

(١٤) الرسائل ٢/١٩ ، ونحب ان نشير الى أن التقسيم عبارة عن محاولة لجمع وتنسيق مادة هذا الموضوع المتناثر فى رسائل اخوان الصفا كلها .

(١٥) الرسائل ٤/٤٧ .

محبا لأهل العلم والحكمة أنك تحتاج أن تسلك طريق أهلها وهو أن تقتصر من أمور الدنيا على ما لابد منه ، وتترك الفضول )[١٦] .

وفى نهاية هذه المرحلة ، يطالب أخو الصفا بأن يطرح على الأرض كل نزعات الجسد ، وأن يتطلع إلى عالم آخر روحى ، يسمو عن الرغبة فى الدنيا ، ويعتمد على التصوف والزهد ( إن الافتخار والثناء ينبغى أن يكون فى اقتناء الفضائل الحكمية والزهد والتصوف ولزوم مذاهب الربانيين والتهاون بأمر الجسد)[١٧] .

النفس إذن هى جوهر الانسان ، وإذا آمن بذلك فما عليه إلا ( أن يهتم بأمرها ، ويحرص على خلاصها من ظلمة الجهالة ، واستنقاذها من بحر الهيولى ، وعتقها من أسر الطبيعة )[١٨] ، ومحاولة الوصول بها إلى أعلى مراتب الانسانية ، وفى سبيل ذلك ، عليه أن يقوم بعملية اخلاء وتطهير للنفس من كل ما علق بها من الاخلاق والعادات الرديئة منذ الصغر ، وصار لها طبعا مع العادة ( وأما رتبة الانسانية التى تلى رتبة الملائكة فهى أن يجتهد الإنسان ويترك كل عمل وخلق مذموم قد اعتاده من الصبا)[١٩] .

والخلق المذموم - فى رأى أخوان الصفا - هو كل خلق ينفر الناس من صاحبه - والواقع أن هذا أمر منطقى فى منهج يعد الإنسان ليكون قائدا لجماعة عليه ألا يظلم أحدا من الناس، أو يتعدى على الضعفاء منهم[٢٠] ، كما ينبغى عليه ألا يخون ، أو يكذب ، أو يخدع ، أو ينافق ، أو يعمل الخير رياء[٢١] ، يصون لسانه عن الفحشاء[٢٢] ، ولا يدخل فى منازعة أو خلاف ( إياك والمكان الذى تكون فيه المنازعة والخلاف، وإن جرى ( النزاع ) وأنت فيه ، فاخرج ، وابتعد

---

(١٦) الرسائل ٢/١٧ .
(١٧) الرسائل ٣/٣٤ .
(١٨) الرسائل ٣/٣٤ .
(١٩) الرسائل ٢/١٤٦ .
(٢٠) الرسائل ٣/١٧٥ .
(٢١) الرسائل ٤/١٨٠ ٢٩٨ .
(٢٢) الرسائل ٤/٦٣ .

عنه )[٢٣] ، ( فإن أردت أن تكون هاديا ، مهديا ، مؤيدا رشيدا ، فاترك الخصومات والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة والأفعال القبيحة واجتنب الآراء الفاسدة )[٢٤] ، والخلاصة أنه لا ينبغى لإخوان الصفا أن يأتوا عملا يبعد الناس عنهم ، أو يفرق القلوب من حولهم .

بهذا تتم عملية التطهير ، لتبدأ بعدها مرحلة التكوين او الامتلاء . وأولى خطوات هذه المرحلة هو البحث عن المعرفة، أيا كان نوعها ( . . وتعلم العلم أىَّ علم كان : حكميا أو شرعيا ، رياضيا اوطبيعيا اوإلهيا ، فانها كلها غذاء للنفس وحياة لها فى الدنيا والآخرة )[٢٥] .

وليس هذا العلم المطلوب ، أو تلك الثقافة المفتوحة بعيدة المنال ، إذْ هى مقدمة لاخوان الصفا فى تلك ( الرسائل ) البالغ عددها احدى وخمسين رسالة ( وقد جعلنا الرسائل كلها على أربعة أقسام ) :

القسم الاول : رياضية يُبتدأ بها .

القسم الثانى : جسمانية طبيعة يتلو بها .

والقسم الثالث : نفسانية عقلية من بعدها .

والقسم الرابع ؛ ناموسية إلهية هى آخرها[٢٦] .

وأهم ما تمتاز به ثقافة إخوان الصفا ـ كما تحددها رسائلهم ـ أنها ثقافة شاملة ، تستغرق كل شىء ، وتقف أمام كل جزئية فى الكون ، ولووقفة عابرة ( من مذهب إخواننا الكرام ـ أيدهم الله ـ النظر فى جميع علوم الموجودات التى فى العالم من الجواهر والأعراض والبسائط والمجردات والمفردات والمركبات والبحث عن مباديها ، وعن كمية أجناسها وأنواعها وخواصها ، وعن ترتيبها ونظامها على ما هى عليه الآن )[٢٧] .

---

(٢٣) الرسائل ٣/ ١٧٥ .

(٢٤) الرسائل ٤/ ٧١ .

(٢٥) الرسائل ٤/ ٧١ .

(٢٦) الرسائل ٤/ ٣٢٠، ٣٢١ .

(٢٧) الرسائل ١/ ٢٣ .

وفى مقابل هذه الثقافة الشاملة ، لابد من توافر العقلية المرنة التى تأخذ المعرفة عن أى كتاب ، ليست عمياء بالتعصب ، أو مغلقة على مذهب واحد لا تقبل سواه ( وبالجملة ينبغى لاخواننا - أيدهم الله تعالى - ألا يعادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لان مذهبنا يستغرق المذاهب كلها . ويجمع العلوم جميعا )[٢٨] .

ويحذر إخوان الصفا صاحبهم من أن يتبلد شعوره أمام الحوادث التى تتكرر كل يوم ، فهو مطالب على الدوام بأن يكون يقظا متطلعا يطرح الاسئلة على عقله أمام كل شىء ( إن مشاهدة جريان الامور دائما اذا صارت عادة قل تعجب الناس منها ، والفكر فيها ، والاعتبار لها ، ويعرض لهم من ذلك سهو وغفلة ، ونوم النفس ، وموت الجهالة ، فاحذر من هذا الباب - ياأخى - ولا تكن من الجاهلين )[٢٩] .

وكما يحذر إخوان الصفا من بلادة العقل أمام العادة ، يحذرون كذلك من الوقوع تحت وطأة التقليد ، لاسيما فى أمر الآخرة ( إن أفضل العلماء هم أهل الله والورع الذين هم من أمر الآخرة على بصيرة ، لا على تقليد ورواية )[٣٠] .

أما طريق المعرفة عند إخوان الصفا فينحصر فى واحد من ثلاث : قوة الفكر الذى تدرك به النفس الموجودات المعقولات ، ومن هذا الطريق أخذت الأنبياء ، عليهم السلام ، الوحى من الملائكة[٣١] ، والطريق الآخر : السمع الذى تقبل به النفس معانى اللغات ، وما تدل عليه الأصوات من الاخبار الغائبة ، والأخير : طريق النظر الذى به تشاهد النفوس الموجودات

---

(٢٨) الرسائل ٤/١٠٥ ، وأيضا ٢١٦ .

(٢٩) الرسائل ٢/١٦١ .

(٣٠) الرسائل ٣/٢٧٦ .

(٣١) من الضرورى هنا التنبيه الى ان اخوان الصفا يضعون الفيلسوف فى مرتبة أعلى من النبى : ( ان أتمّ الحيوانات هيئة ، وأكملها صورة ، وأشرفها تركيبا هو الانسان ، وأفضل الانسان هم العقلاء ، وأخيار العقلاء هم العلماء ، وأعلى العلماء درجة وأرفعهم منزلة هم الانبياء ، عليهم السلام ، ثم بعدهم فى الرتبة الفلاسفة والحكماء ) الرسائل ٤/١٧٨ .

الحاضرة [٣٢] .

واذا كان الحق هو الغاية القصوى للمعرفة ، فإن دون الوصول إلى تلك الغاية عقبات ومشاكل ، وتوضح الجماعة لاخى الصفا أصلح الطرق للخروج من الإشكال إذا صادفه ( اعلم أن الحق هو غاية ليس وراءها نهاية ، ولكن دونها أمور متشابكة مشكلة ، واعلم ان الالفاظ محتملة للمعانى ، والاوهام تذهب فى طلبها كل مذهب فينبغى لك إذا سمعت لفظة محتملة للمعاني ألا تحكم عليها حكما دون أن تبين بعقلك كل المعانى التى تحتملها تلك اللفظة ، لعلك تفهم الغرض الاقصى الذى هو الثواب ، وتبلغ الغاية القصوى التى هى الحق )[٣٣] .

وفى الواقع ، ليست الدعوة التى التوقف المستأنى أمام المشكلات إلا تمهيدا ذكيا من إخوان الصفا للتفرقة بين نوعين من المعرفة : نوع سطحى يدركه - على حد زعمهم - علماء الشريعة ، ونوع عميق لا يصل إليه إلا الراسخون فى العلم ( إن لكل شيء من الموجودات فى هذا العالم ظاهرا وباطنا ، وظواهر الامور قشور ولباب ، وبواطنها لب ومخ ، وان الناموس هو احد الاشياء الموجودة فى هذا العالم منذ كان ، وله أحكام وحدود ، ظاهرة بينه يعلمها أهل الشريعة وعلماء أحكامها من الخاص والعام ، ولأحكامه وحدوده أسرار وبواطن لا يعرفها إلا الخواص منهم والراسخون فى العلم )[٣٤] .

هنا فقط يدرك عضو الجماعة أن لمعرفته حدودا يجب أن يقف عندها ويعلم أن وراء كل شيء سراً مغلقا لا ينبغى له اقتحامه ، وأخيرا فهو يقف على حقيقة نفسه ، وهى أنه ليس حرا فى اكتشاف الحق وحده ، ولا قادرا على الوصول اليه بمفرده ، لابد إذن من مرشد يأخذ بيده ( واعلم - أيها الاخ - أن من سعادتك أيضا أن يتفق لك معلم ، ذكى ، جيد الطبع ، حسن

---

(٣٢) الرسائل ٣/٣٢، ٣٣ .
(٣٣) الرسائل ٤/١٣٨ .
(٣٤) الرسائل ١/٢٥٥ .

الخلق ، محب للعلم ، طالب للحق ، غير متعصب لرأى من المذاهب)[٣٥] .

وترتفع منزلة هذا المعلم حتى تصل منزلة الوالد لأبنائه ، بل إنها تفوق تلك الأبوة الجسدية الزائلة ( واعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك ، وسبيل لنشوئها ، وعلة حياتها . كما ان والدك أب لجسدك ، وكان سببا لوجوده ، وذلك أن والدك أعطاك صورة جسدانية ، ومعلمك أعطاك صورة روحانية )[٣٦] .

وهم إذْ يضيقون نطاق المعرفة على أخى الصفا عند هذا الحد ، لا يلبثون أن يمنحوه الأمل فى تخطى هذا النطاق والارتفاع من منزلته الى منزلة أعلى ، وهكذا يطبعونه على التطلع الدائم الى قمة تنظيمهم ( فان استوى ان تكون فى أعلى المراتب وأعلى الدرجات فلا ترض لنفسك بالدون ، واجتهد فى الطلب ، فان الذين هم فوقك قد كانوا ، وليست هذه مراتبهم ، ثم اجتهدوا فى الطلب )[٣٧] .

ومع هذا ، فهم يعتذرون عن عدم إفشاء أسرار علمهم للناس بعذر لا يمكن قبوله على إطلاقه ( واعلم - أيها الاخ البار الرحيم - أنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سلطة الملوك ، ذوى السلطة الارضية ، ولا حذرا من شغب جمهور العوام ، ولكن صيانة لمواهب الله ، عز وجل ، لنا )[٣٨] .

بقى أن نشير - فى مرحلة التكوين العلمى - إلى دعوة إخوان الصفا أتباعهم جميعا أن يحصلوا بصفة خاصة ، ( علم أحوال القمر ) وهو جزء من علم الفلك وذلك كبداية للافادة منه فى صلاح أى أمر من أمور الدنيا ( لا ينبغى لأحد من أخواننا - أيدهم الله - ولا لأحد من أى الناس كان ، أن يبتدى بتدبير شىء من الأشياء ، ولا صنعة من الصنائع ، ولا عمل من

---

(٣٥) الرسائل ٤/١١٤ .
(٣٦) الرسائل ٤/١١٣ .
(٣٧) الرسائل ٤/٤٧ .
(٣٨) الرسائل ٤/٢١٥ .

الأعمال يريد به الصلاح فى أمر نفسه ومعيشته إلا بعد معرفة أحوال القمر ، لأنه اختص بتدبير عالم البشر[٣٩] .

وقد يكون هذا أمرا طبيعيا لاسيما بعد أن عرفنا نوع الثقافة الشاملة التى يحصلها أخو الصفا ، غير أن ما يفهم منه اعمق من هذا ، وهو محاولتهم وضع أخى الصفا فى منزلة الانسان الذى يسعى إليه الجمهور طالبا استشارته فى كل صغيرة وكبيرة . . والمستشار دائما قائد له حق السيطرة الروحية على سائليه ، والتوجيه لهم فيما يقصدون إليه ، وربما أكد ذلك الفهم دعوتهم الأخرى إلى ضرورة معرفة السحر والطالع وما إلى ذلك ( واعلم ياأخى . . أنك وجميع اخواننا محتاجون إلى المعرفة بهذه الأمور ( السحر ومعرفة الطالع الخ ) لتكونوا أغنياء بما فى أنفسكم من المعارف والعلوم عن الحاجة إلى من لا يعرف قدركم ، فيكون له الفضل عليكم ، إذْ قد جهلتم ما علمه ، واحتجتم فيه اليه ، وليس هذا صفة اخواننا الفضلاء ، لانهم لا يرضون لأنفسهم الجهل )[٤٠] .

والظاهر أن اعتقاد أخى الصفا يحتوى على أن العالم مخلوق ، وأن له ( بارئاً حكيما قادرا حليما جوادا كريما غفورا رحيما . وأنه قد أحكم امر عالمه على أحسن نظام ، ورتب تدبير الخليقة على أتقن حكمة . ولم يترك فيه خلل ، ولا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء ، ولا يرى فى خلق الرحمن من تفاوت )[٤١] .

ولكن البحث عن نشأة الكائنات وتطورها فى فلسفة إخوان الصفا ينتهى بأنهم يقفون من الطبيعة موقفا ماديا ، ويفسرون نشأة الحياة على الأرض بصورة تجعلنا نتجاوز هذا النص السابق وأمثاله فى مجال البحث عن عقيدتهم فى مسألة خلق العالم ، فإنهم - فى الواقع يذهبون إلى القول بنوع من التطور الطبيعى بين الكائنات بدءا من الجماد ، فالنبات ، فالحيوان ،

---

(٣٩) الرسائل ٤/٤٤٧ .

(٤٠) الرسائل ٤/٤١٨ .

(٤١) الرسائل ٣/٨٧ ، ٨٨ .

وانتهاء بالإنسان . . ويستعيرون لتفسير هذا التطور نظرية الفيض التى تسربت إلى المسلمين من الفلسفة الافلاطونة المحدثة[٤٢] .

ومهما يكن من أمر البحث عن العقيدة الحقيقية لإخوان الصفا ، فإنه من الافضل أن ننبه إلى أن هذه مسألة لا ينبغى تلمس جوهرها ( كله ) فى الرسائل ( وحدها ) ، وانما يجب الاستعانة أيضا بما يقدمه لنا التاريخ الصحيح عن الحياة الخاصة لتلك الجماعة . لأننا امام دعوة تحاول جاهدة اخفاء اهدافها الحقيقية ، كما أننا فى مواجهة مؤلف ذكى يلعب بالالفاظ ، ويموه على القارىء العادى كثيرا من الحقائق .

بعد ذلك تأتى مرحلة التكوين الاخلاقى ، والغرض منها ان يحقق اخو الصفا عددا من الصفات والاخلاق الحميدة ، يتمكن بعد اكتسابها من ان يكون قدوة لغيره من الناس ( وأما رتبة الانسانية التى تلى ( تسبق ) رتبة الملائكة فهى ان يجتهد الانسان ويترك كل عمل وخلق مذموم قد اعتاده من الصبا ، ويكتسب اضداده من الاخلاق الحميدة ، ويعمل عملا صالحا ، ويتعلم علوما حقيقية ، ويعتقد آراء صحيحة[٤٣] .

( واعلم - ياأخى - أن حسن الخلق ، والسيرة العادلة هما من أخلاق الملائكة )[٤٤] ، ( وسبيلك أن تعود نفسك عمل الخير لأنه خير ، لا تريد بفعلك عوضا ، ولا يحملك على فعله خوف )[٤٥] ويلاحظ أن فكرة عمل الخير من أجل الخير ذاته - من الأفكار الأجنبية التى تسربت إلى المسلمين من الخارج ، وتكمن خطورتها فى أنها تفصل فكرة الخير عن الثواب الإلهى الذى ينتظر صاحبه فى الآخرة ، كما يحدث نفس الشىء بالنسبة إلى فكرة الامتناع عن الشر والخوف من العقاب الإلهى فى الآخرة ، ومن المعروف أن هذه الافكار مما شاع فى عالم التصوف ،

---

(٤٢) كانت هذه النتيجة هى ما انتهى اليه بحث سابق لنا ، بعنوان ( فكرة التطور فى فلسفة اخوان الصفا ) .

(٤٣) الرسائل ٢/١٤٦ .

(٤٤) الرسائل ٤/٦٧ .

(٤٥) الرسائل ٤/٢٩٨ .

وتصدى له علماء المسلمين[٤٦] .

ويوصى إخوان الصفا صاحبهم بأن تكون أخلاقه رضية ، وعاداته جميلة ، وأفعاله مستقيمة ، يؤدى الأمانة إلى أهلها ، كائنا من كان من ولى وعدو ، ويأخذ نفسه بحفظها ، ويرعى حق من استرعاه حقها ، ويحسن مجاورة جاره ، ويصفى مودة صديقه ، ويخلص المحبة لمحبه ، مع قلة الفزع فى مستعجل زائل ، وحادث نازل، ويريد للغير ما يريد لنفسه[٤٧] .

لكن أهم ما يميز أخلاق عضو الجماعة ، وهو فى الوقت نفسه أصل لكل الأخلاق التى يدعى إليها هو إيثار الغير ، أو إنكار الذات ، أو ما يمكن أن نطلق عليه فدائية الفرد الذى يضحى بنفسه من أجل المجموع : ( واعلم - ياأخى - أن دولة اهل الخير[٤٨] يبدأ أولها من قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء ، يجتمعون على رأى واحد ، ويتفقون على مذهب واحد ، ودين واحد ، ويعتقدون بينهم عهدا وميثاقا : ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا ، ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين ، وطلب الآخرة )[٤٩] .

( وأعلم أيها الاخ البار الرحيم - أيدك الله وإيانا بروح منه - أنه ليس من جماعة يجتمعون على تعاون فى أمر من أمور الدنيا والآخرة أشد نصيحة بعضهم لبعض من تعاون إخوان الصفا . . وينبغى أن تعلم أن العلة التى تجمع بين إخوان الصفا هى أن يرى ويعلم كل واحد منهم أنه لا يتم له ما يريد من صلاح معيشة الدنيا ، ونيل الفوز والنجاة فى الآخرة ألا بمعاونة كل واحد منهم لصاحبه ، وأما السبب الذى يحفظهم على تلك الحال ، فهو المحبة والرحمة

---

(٤٦) انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١٦١ - ١٦٩ .

(٤٧) الرسائل ٤/٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٤٨) يلاحظ تحول التعبير من ( جماعة اخوان الصفا ) الى ( دولة اهل الخير ) وما يتضمنه هذا التحول من كشف للهدف الذى بدأ علميا مصطبغا بصبغة صوفية فلسفية ، ثم أصبح فيما بعد سياسيا واضحا .

(٤٩) الرسائل ١/١٣١ .

والشفقة ، والرفق من كل واحد منهم ، والمساواة فيما يريد ويحبّ ويبغض ويكره لنفسه )[٥٠] .

الاتحاد فى الرأى والمعتقد ، والتعاون على أمور الدنيا ، والتفانى المطلق فى سبيل المجموع . . ما هى إلا مقدمات صحيحة إلى اقامة تنظيم سياسى ، لا يخدعنا - بعد ذلك التعبير عنه بأنه روحانى او نحوه ( وينبغى لنا - أيها الاخ - أن نتعاون ونجمع قوة أجسادنا ، ونجعلها قوة واحدة ، ونرتب تدبير نفوسنا تدبيرا واحدا ، ونبنى مدينة فاضلة روحانية )[٥١] .

ويتضح الهدف السياسى أكثر ، عندما يقرر إخوان الصفا انه ينبغى أن يكون لأهل المدينة سيرة جميلة كريمة حسنة ، يتعاملون بها فيما بينهم ، وأن يكون لهم ( سيرة اخرى ) يعاملون بها أهل المدن الجائرة[٥٢] .

ويكفى أن نسوق مثالا يوضح تلك ( السيرة ) التى يشير إليها إخوان الصفا وخاصة فيما يتعلق بمعاملاتهم بعضهم بعضا داخل مدينتهم ( الروحانية ) ( فينبغى لإخوانهم ممن قد رزق المال والعلم جميعا أن يؤدى شكر ما أنعم الله ، جل وعز ، به عليهم بأن يضم اليه أخا من اخوانه ممن قد حرمهما جميعا . ويواسيه من فضل ما أتاه الله من المال ليقيم به حياة جسده فى دار الدنيا ، ويرفده ، ويعلمه من علمه لتحيا به نفسه للبقاء فى دار الآخرة .

ولا ينبغى له أن يمن عليه من المال ولا يستحقره ، ويعلم أن الذى حرم أخاه هو الذى أعطاه . وكما أنه لا يمنّ على ابن له جسدانى فيما يربه وينفقه عليه من مال . ويورثه ما جمعه من المال بعد وفاته ، كذلك لا يجب أن يمن على ابنه النفسانى ، لأنه إن كان ذلك ابنه الحيوانى ، فهذا ابنه النفسانى[٥٣] .

---

(٥٠) الرسائل ٤/٢١٨ ، ٢١٩ ، وأيضا ٤/١٨٠ .
(٥١) الرسائل ٤/٢٢٠ .
(٥٢) الرسائل ٤/٢٢٠ .
(٥٣) الرسائل ٤/١١٥، ١١٦ .

وأما من رزق المال، ولم يرزق العلم من إخواننا ، فينبغى له أن يطلب أخا ممن قد رزق العلم ، ويضمه إليه ، ويواسيه : هذا من ماله ، ويرفده هذا من علمه ، ويتعاونان جميعا على إصلاح أمر الدين والدنيا .

وينبغى للأخ ذى المال ألا يمنّ على الاخ ذى العلم بما يواسيه من ماله ولا يحتقره لفقره[٥٤] .

( وينبغى للأخ ذى العلم والحكم ألا يحسد ذا مال له ، ولا يستحقره لجهله ، ولا يفتخر عليه بعلمه ، ولا يطلب منه عوضا فيما يعلمه لأن مثلهما فى صحبتهما وتعاونهما : هذا لهذا بعلمه ، وهذا لهذا بماله ، كمثل اليد والرجل فى اتصالهما بالجسد ، وخدمتهما وتعاونهما فى إصلاح الجملة )[٥٥] .

وأما من رزق العلم ، ولم يرزق المال ، ولا يجد من يواسيه من إخواننا فينبغى له ان يصبر وينتظر الفرج ، فإنه لابد أن يؤيده الله ، عز وجل بأمرٍ أو بأخ يخفف عنه ما يحتمله من ثقل الفقر[٥٦] .

( فهكذا ينبغى أن يكون تعاون إخوان الصفا فى طلب صلاح الدين والدنيا )[٥٧] .

أما عن ( السيرة الاخرى ) التى يدخرها إخوان الصفا لمعاملة المدن الجائرة فإن رسائلهم تسكت عن هذا الجانب ، ونحن بذلك نكون قد افتقدنا خيطا مهما فى مجال تحديد ملامح أعدائهم ، ونعتقد أن الحصول عليه كان سيلقى كثيرا من الضوء على الشخصية الحقيقية لإخوان الصفا أنفسهم .

---

(٥٤) الرسائل ٤/١١٦ .

(٥٥) الرسائل ٤/١١٧ .

(٥٦) الرسائل ٤/١١٨ ، والواقع انهم فى مكان آخر (٤/٢١٥) يؤكدون لهذا الانسان ضرورة معاونتهم له بكتاب توصية الى سلطان ، أو وال ، أو صاحب صناعة من أتباعهم المنتشرين فى كل مكان ولاممثلين لمختلف الطبقات ان يأخذ بيده من وهدة الفقر .

(٥٧) الرسائل ٤/١١٧ .

كل ما تصرح به الرسائل هو موقف الجماعة من العضو الذى يخرج على نظامها . وهو موقف صارم يتخذ صورة المقاطعة التامة ، فمن لم يرض بشرائط العقل ، وموجبات قضاياه ، ولم يقبل تلك الشرائط التى أوصينا بها أخواننا ، أو خرج عنها بعد الدخول فيها ، فعقوبته فى ذلك ان نخرج من صداقته ، ونتبرأ من ولايته ، ولا نستعين به فى أمورنا ، ولا نعاشره فى معاملتنا ، ولا نكلمه فى علومنا ، ونطوى دونه أسرارنا ، بمجانبته إخواننا )[٥٨] .

أخيرا . . يأتى الدور الذى يصبح فيه عضو جماعة إخوان الصفا مؤهلا لأن يقود ويوجه ، لكنه قبل أن يخرج للجمهور داعيا للاصلاح عليه أن يبدأ بأهل بيته أولا : ( كيف يجوز للعاقل العالم أن يكون له أهل يتدينون بدين ، ويذهبون إلى مذهب هو يأمر اصحابه بخلافه ) .[٥٩] .

ويوضح إخوان الصفا لصاحبهم الطريقة التى بها يعامل نساءه : ( فيكون صفحك إليهن كثيرا ، ومن غير إشعار منهن أن تكون مراعيا احوالهن ، ولا يغرك منهن صلاح تعرفه فيهن ، فقد أنبأناك أن تلونهن كثير ، وأن استفسادهن سهل يسير ، إلا من عصمها الله تعالى ، وقليل ما هم .

وأما أولادك وغلمانك وحواشيك فأياك ان تظهر لهم فاقة بعد أن تقوم بواجبك المفروض عليك . فإنه متى ظهر لهم منك اختلال أو حاجة نقصت منزلتك ، وقصر موضعك ، فلم يقم لك وزن ، ولا قامت لك هيبة .

أما الأصحاب فاعلم أن سياستهم لا تكون إلا بعد المعرفة بهم ، والاطلاع عليهم ، ومعرفة أحوالهم . . ألا يخفى عليك من أمرهم صغيرة ولا كبيرة لتسوس كل واحد منهم

---

(٥٨) الرسائل ٤/١٨١ .
(٥٩) الرسائل ٤/٥٨ .
(٦٠) الرسائل ٤/٢٩٩ .

السياسة التى تليق به دنيا ودينا .[٦١] .

واحرص أن تباعد بين معرفتهم بك وبينهم لئلا يطلعوا عليك كما اطلعت عليهم فيأتوك من حيث أمنت ، لأنه ليس كل من صاحبك يحق لك أن تحتفظ به[٦٢] .

بذلك نكون قد عرضنا للمنهج التربوى الذى أُعد لتخريج جماعة إخوان الصفا ، لكننا نرى من تمام الصورة أن نعرض لنظام هذه الجماعة ، ومراتب الأعضاء فى هذا النظام : ( إن قوة نفوس إخواننا فى هذا الامر الذى نشير إليه ، ونحث عليه ، على أربع مراتب :

من ١٥ سنة : الإخوان الابرار الرحماء ، وصفتهم صفاء جوهر النفوس ، وجودة القبول، وسرعة التصور .

من ٣٠ سنة : الإخوان الاخيار والفضلاء، وصفتهم مراعاة الاخوان، وسخاء النفس ، واعطاء الفيض ، والشفقة والرحمة والتحنن على الاخوان .

من ٤٠ سنة : الإخوان الفضلاء الكرام ، وصفتهم أنهم ذوو السلطان والأمر والنهى والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة فى اصلاحه .

من ٥٠ سنة : وصفتهم التسليم، وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانا ، وعليهم تنزل قوة المعراج ، وبها تصعد النفوس إلى ملكوت السماء ، فتشاهد أحوال القيامة ، وهى التى ندعو اليها إخواننا كلهم فى أى مرتبة كانوا[٦٣] .

ولا تتحقق هذه المراتب بهذا التسلسل إلا إذا توافر بين الأعضاء فى كل مرتبة عنصر الطاعة

---

(٦١) يقارن هذا النص بما أورده الغزالى عن حيلة الزرق والتفرس لدى الباطنية - الباب الثالث الفصل الاول من كتاب ( فضائح الباطنية ) تحقيق د . عبد الرحمن بدوى .

(٦٢) الرسائل ٤/ ٢٩٩ .

(٦٣) الرسائل ٤/ ١٢٠ .

المطلقة للرئيس ، وهم يقرون أن ( الطاعة) جوهر الدين كله : ( فهذا هو الدين النبوى الحنيفى ، والمنهاج السنى ، والسيرة الملكية ، وهو أن يكون كل مرؤوس ينقاد لطاعة رئيسه ، ولا يعصيه فيما يأمره ، وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع )[٦٤] .

(ثم اعلم أنه ليس من مرتبة فى الدنيا ارفع ، ولا فضيلة أحسن من الرئاسة فى العقلاء لذوى السياسات والتدبير، ولا نعمة ألذ ، ولا رتبة أحسن من انقياد العقلاء للرئيس ، وطاعتهم له )[٦٥] .

بقى أن نسأل : إلى أى مدى تحقق هذا المنهج ، واكتمل هذا التنظيم ؟

إن الرسائل نفسها تجيب عن ذلك بأن الدعوة كانت منتشرة بين عدد ليس بالهين من مختلف الطوائف : ( إن لنا اخوانا وأصدقاء من كرام الناس ، وفضلائهم ، متفرقين فى البلاد :

فمنهم : طائفة من أولاد الملوك ، والامراء ، والوزراء ، والعمال، والكتاب .

ومنهم : طائفة من أولاد الاشراف ، والدهاقين ، والتجار ، والتناء( المرابطين ) .

ومنهم : طائفة من أولاد العلماء ، والادباء ، والفقهاء ، وحملة الدين ،

ومنهم : طائفة من أولاد الصناع المتصرفين ، وأمناء الناس[٦٦] .

ولكن ما ورد عن أبى حيان التوحيدى - وهو غير كاف[٦٧] - يدل على أن إخوان الصفا كانوا يمثلون جماعة شبه منبوذة ، لا تحظى بالتأييد الكامل من كل الطبقات ، كما يشير إلى أن الدعوة

---

(٦٤) الرسائل ٣/٤٢٤ .
(٦٥) الرسائل ٣/٤٢٥ .
(٦٦) الرسائل ٤/٢١٤ .
(٦٧) الامتاع والمؤانسة حـ ٢ ، الليلة ١٧ .

كانت غامضة بالنسبة الى السلطة الحاكمة حينئذ[٦٨] .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا ( المنهج ) الذى رسم بدقة فى القرن الرابع الهجرى قد استغل فيما بعد لدى كثير من الجماعات السرية التى كانت تخرج على السلطة فى عصور مختلفة .

فقد وجدت (الرسائل ) فى حصون الاسماعيلية الجبلية ، فى فارس والشام ، وهذا دليل على استخدامها كبرنامج لحركاتهم الثورية[٦٩] كما انتقلت إلى الأندلس منذ عهد مبكر[٧٠] ، ومن المتوقع أنها عملت عملها فى جماعات ابن مسرة الجبلى ، وابن المجاهد . . وبالجملة ، فقد كان لرسائل إخوان الصفا أثر واضح فى معظم مفكرى الإسلام الذين جاءوا بعدهم .

---

(٦٨) يتضح هذا من سؤال الوزير أبى عبد الله العارض للتوحيدى عن الجماعة ، وأهدافها ، وفلسفتها - انظر المصدر السابق ، نفس الليلة .

(٦٩) يقول ماكدونالد : ( وحينما استولى المغول على قلعة ألموت وجدوها غنية برسائل اخوان الصفا ) انظر : اخوان الصفا للاستاذ عمر الدسوقى ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٧٠) قام الطبيب الفيلسوف الكرمانى بنشر رسائل اخوان الصفا فى سرقسطة ، وكان الذى أتى بها الى الاندلس مسلمة المجريطى - انظر : تاريخ الفكر الاندلسى لبالنثيا ص ٣٣٣ ، ترجمة د . حسين مؤنس .